أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد على الكرسى يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان فى حيز واحد .

وترى ذلك أيضاً فى غير الجرم المرئى ، فأنت حين تأتى بقارورة وتضعها فى ماء لتمتلىء تسمع صوت الهواء الخارج منها فى بقبقة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن خرج الهواء ، ولأن المياه أكثف فهى تضغط ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل . أى لا يوجد شيئان اثنان فى حيز واحد . ومكانتك هى الموقع الذى تستولى عليه ، ولذلك حتى فى الجيوش وفى الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولى على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا النبوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتيئيسا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو اثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لى من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقاتى الإيمانية ومدد ربى الأعلى من الطاقة .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » و « له » تعطى دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى « اللام » اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكأن الظالمين إن تنلهم عاقبة فهى ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

﴿نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾

وهنا رجوع إلى كلام عن الذين يناهضون منهج الله.

و«ذرأ» أى خلق ، وبث ، وبشر ، والحرث يراد به الزرع ، وسمى الزرع حرثاً ؛ لأنه يأتى بالحرث ، و«الأنعام» وهى تتمثل فى ثمانية أزواج فى آية تأتى بعد ذلك ، وهى الإبل ، والبقر ، والضأن والمعز .

«وجعلوا لله مماذرأ من الحرث والأنعام نصيباً»أى مماخلق ، وهم قد حرثوا فقط ؛ لأن الذى يزرع هو الله ، فسبحانه الذى أعطى للبذرة قوتها لتربى لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذى جاء بعناصر الأرض كلها، وهو الذى جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير صالح بقانون« الذى خلق فسوّى والذى قدّر فهدى» . والذى صنعه الله الحرث وفى الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذى ذرأ وخلق . إنه- سبحانه- هو المتصرف .

هم جعلوا لله مماذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا : هذا لله «بزعمهم»وهذا لشركائنا ، أى جاءوا بالحرث وقسموه قسمين . وقالوا : هذا لله ، وهذا للأصنام . وكذلك قسموا الأنعام وجعلوامنها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذى خلق بدلاً من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم ، وياليتكم أنصفتم فنرضى بقسمتكم فيذهب القسم الذى لله للصدقات على الفقراء ، والذى للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم الأقداح ، وياليتكم عرفتم العدل فى القسمة بل أن ماصنعتموه هوقسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا؟ . تأتى الإجابة من الحق :

﴿ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ .. (١٣٦) ﴾ [سورة الأنعام]

أنتم قسمتم وقلتم : هذا لله وهذا لشركائنا . فاصدقوا مع أنفسكم فى هذه النسبة ، لكنهم كانوا يسرقون حق الله ، وكان لهم فى الهلاك تقسيم معين ، وفى الزيادة لهم تقسيم آخر . فإذا ما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا : إن ربنا غنى ! وبرغم أنكم قسمتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التى فرضتموها ورضيتم بها .

وكذلك فى الأنعام يقدرون عدداً من الأنعام ويقولون : هذه لله ، وتلك للشركاء ، فإن ماتت بهيمة من المنذور لله لم يعوضوها ، وإن ماتت بهيمة منذورة للأصنام يعوضوها ويأخذوا بدلاً منها من القسم الذى نذروه لله . وأيضاً لنفترض أن عيناً جارية ساحت فيها المياه لتروى الزرع المقسوم لله ، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام . إذن هى قسمة ضيزى من البداية ، وليتهم وفوا بهذه القسمة ، وهكذا ساء حكمهم وفسد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى مايتلعق بذواتهم فى الإنجاب والإنسال ؛ فشركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم ، و«التزيين» هو إدخال عنصر التحسين على

التزيين أمراً عرضياً طارئاً ، ووجه التزيين أنهم كانوا إما أغنياء ، وإما فقراء ، فإن كانوا فقراء يقل الواحد منهم لماذا أجلب لنفسي همًّا على همّ ، وإن كانوا أغنياء يقل الواحد منهم : إن الأبناء سيأخذون منك ويفقرونك . إذن ففيه أمران : إما فقر موجود بالفعل ، وإما فقر مخوَّف منه ، ولذلك تجد الآيات الى تعرضت لهذا المعنى ، تأتي على أسلوبين اثنين ؛ فالعَجُز مختلف باختلاف الصدر ، والذين يحبون أن يستدركوا على أساليب القرآن لأنه مرة يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

ومرة ثانية يقول :

﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فما الفرق بين العبارتين؟

ونقول لمثل هذا القائل : أنت تقارن بين التذييل « نحن نرزقكم وإياهم » ، و« نحن نرزقهم وإياكم » . هذه تذييل لآية ، وهذه تذييل لآية ثانية . هات ذيل الآية مع صدرها تجد أن ذيل كل آية مناسب لصدرها . ومادام قد اختلف في الصدر فلابد أن يختلف في الختام ، ففي الآية الأولى يقول الحق سبحانه : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » فالإملاق وهو الفقر واقع موجود . إذن فشغل الإنسان برزقه أولى من شغله برزق من يعوله من الأولاد ، فيقول الحق لهؤلاء :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فالإملاق موجود ، وشغلهم برزق أنفسهم يملأ نفوسهم . لذلك يقول لهم : « نرزقكم وإياهم » فيطمئنهم سبحانه نحن نرزقكم ثم نرزقهم . أما إن كان الإملاق غير موجود فالحق يقول :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

أى لاتقتلوا أولادكم خوفاً من فقر ، فأنتم تملكون رزقكم ، وحين يأتى الأولاد نرزقهم ونرزقكم معهم . وهكذا نرى أن الصدر مختلف فى الآيتين ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ؛ لأن حب الأبناء غريزة فى النفس البشرية ، والنفس تحب أن يكون لها ذرية ؛ لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه فى الأجيال المتتابعة . ونجد الإنسان وهو ممتلىء بالسعادة حين يأتيه حفيد ، ويقول : لقد ضمنت ذكرى لجيلين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقى هو الذى يقدمه الإنسان من عمل ، لاذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجبت أبناء فسيفقرونك ويذلونك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكل يوم يدخلك أبناؤك فى قتال ونزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهاب لمالك ، وإن كانوا بنات فسيتم سبيهن من بعدك ، وهكذا تكون المبالغة فى الإغراء لعملية تناقض الفطرة السليمة فى إمتداد النسل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ .. (١٣٧) ﴾

[سورة الأنعام]

و«لكثيرمن المشركين» تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، و«يردوهم» من الردى ، وهو الهلاك ، والموت .

﴿ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .. (١٣٧) ﴾ [سورة الأنعام]

أى يخلطوا عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين؟ . لقد ورث هؤلاء من أمر قيم الدين ماكان سابقاً وهو ماكانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عنه إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أعمالا ليوردوهم موارد الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم مابقى لهم من دين .

﴿ .. وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧) ﴾ [سورة الأنعام]

لأن وأد الأولاد وقتلهم إنما ينافى فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتقتل أنت؟!

كأنهم يصادمون إرادة الإيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنّه ـ سبحانه ـ لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار ينفذون إلى كل مراد لهم ، ولو لم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ؛ لأنه لو أراد ألا يضلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يقهر على مراد له ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه مختاراً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المختار شيئاً غصباً عن الله ؛ لأن الألوهية تقتضى أمرين اثنين : تقتضى قدرة تتجلى فى الأشياء القهرية التى لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذى له حق الاختيار بين البديلات فى مراداته ، أما بقية الكون فسائر بقانون التسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبتت لله طلاقة القدرة ، ولكنها لا تثبت لله محبوبية المخلوق ؛ لأن المحبوبية تنشأ من أنك تكون حرًّا فى أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلاً مراد الله على مرادك . ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ .

و « الافتراء » هو الاختلاق والكذب المتعمد ، وهم مفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صدق الواقع فى الإنجاب ، فقد خلق الله الزوجين ـ الذكر والأنثى ـ من أجل الإنجاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

وهذا تماد فى الشرك ؛ لأنهم قسموا الحيوانات والحرث وحجزوا قسماً للأصنام، وهذه الأنعامَ المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبنها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم ينتبهوا إلى أن هذه الأنعام نعـمة من الله ، ولا بد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيره لك ولا تفعل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال :

﴿ وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَآ إِلاَّ مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ .. (١٣٨) ﴾

[سورة الأنعام]

أى هى أنعام محرم استخدامها ، وحرموا أيضاً ركوبها .

﴿ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا .. (١٣٨) ﴾ [سورة الأنعام]

وتمادوا فى الكفر فذكروا أسماء الأصنام عليها :

﴿ وَأَنْعَـٰمٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ .. (١٣٨) ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقَّى من الله ، ومأمور به منه - سبحانه - ولو قالوا : إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله ، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله :

﴿ .. سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) ﴾ [سورة الأنعام]

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ
لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن
مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ
إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) ﴾

ويتودهم الباطل إلى باطل آخر فادعوا أن مافى بطون هذه الأنعام من اللبن ومن الأجنة إذا نزلت حيّة فهى للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منها شىء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على التشقيق فى القسمة .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم :

﴿ .. سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) ﴾ [سورة الأنعام]

أى سيجزيهم على كذبهم وافترائهم بمايليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه -سبحانه- (حكيم) فى أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بما يفعلونه من خير وشر ، وإنه سيجازيهم على مافعلوه أتم الجزاء وأكمله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾

وجه الخسران أنهم لم يلتفتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبناءهم أيضاً ، ولعلك أيها الأب قتلت ولداً ، كنت ستعيش أنت فى رحاب رزقه ، وكثيراً مايكون البعض من الأولاد صاحب رزق وفير ، ويقال عن مثل هذا الابن : إن وجهه وجه الخير والسعد والبركة ، فمن يوم أن وُلد ولد معه الخير ، وذلك حتى لايتأبى الإنسان على عطاء الله ؛ لأنك حين تتأبى على عطاء الله تحرم نفسك العطاء فيما تظنه غير عطاء ، وهذا خسران كبير .

إننا نلحظ أن العرب كانوا فى بيئة تستجيب وتلبى الصريخ ، فساعد يصرخ من فى شدة نزلت به واستنجد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده. والمثال على ذلك ماحدث من جد رسول الله ﷺ حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لايحفر ، فقال : لوأن لى عشرة أبناء سأضحى بواحد منهم . إذن فكثرة الأولاد فى هذه المسائل تعطى العزوة وتكثر الصريخ ، ولايفعل ذلك إلا المفطور على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقر فقد تخسر رزقاً قد يكون فى طى من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تفقد مباهج الشأن أو العزوة أو الآل . أو على الأقل أنهم قد خسروا لأنهم عاكسوا مرادات الله فى الإيجاد بالإنجاب .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١٤٠) ﴾ [سورة الأنعام]

و«سفهاً» تعنى طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً .

﴿ .. وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾

[سورة الأنعام]

وهم حين يحرمون على أنفسهم مارزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران فلو تركوها لانتفعوا منها فى حمل أثقالهم أو فيما تدره من لبن ، أو فى أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيراً ، وهم مع ذلك فعلوا مافعلوا بكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً للهداية ، وكان يكفى أن يصفهم بقوله : «قد ضلوا» ؛ لكنه أضاف : «وماكانوا مهتدين» لأن الضلال هو عدم الذهاب إلى المقصد الموصل للغاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فآثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وقول الحق : « أنشأ » أي أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نماذج توضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ؛ لأنه لا يوجد خالق سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواه من شريك أو ند فإنه حين يخلق إنما ينشىء خلقاً على غير نظام أو مثال كان قد سبقه .

وكلمة « جنات » تؤدى ما نعرفه من المكان المحدد الذى يجمع صنوف الزروع والثمار مما نقتات ، ومما نتفكه به ، وتسمى جَنَّة وتسمى جَنَّات ؛ لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجُنون لأن فيه ستراً للعقل ، ومنها الجنّ لأنهم مستورون عن رؤية العين ، وكذلك « المِجَنّ » لأنه الذى يستر عن الإنسان طعنات الخصم .

والجَنَّة هى المكان الممتلىء بالزرع والثمار وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ؛ لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ؛ ففى الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شيء . كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذى يضم ويشتمل على كل المرافق « قصراً » لأنه قَصَرَك عن أى مكان سواه ؛ لأن فيه الأشياء التى تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شيء بعده .

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ .. (١٤١) ﴾ [سورة الأنعام]

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف «عرش» ويطلق العرش أيضاً على السرير ؛ مثل قوله الحق : (ورفع أبويه على العرش) .

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق : (ولها عرش عظيم) .

كل ذلك يدل على «العلو» وقوله الحق هنا : « معْروشات وغير معروشات » ، أى أن الزرع من نوع العنب ، حين نعنى به نجعل له القوائم والقواعد التى يقوم عليها ؛ لأن امتداد أغصانه اللينة لاتنهض أن تقوم وحدها ، ولكن هناك نوع أيضاً يقوم وحده نسميه العنب الأرضى ، وكأن الكلام فيما يختص بالكَرْم . أى : أنك إذا مانظرت إلى الزرع الذى لاساق له كالبطيخ ، وكالشمام ، وكالكوسة ، وكل الزروع التى ليس لها ساق تجدها مفروشة فى الأرض أى غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش . وإن كنا الآن نحاول أن نرفعها لنعطى لها قوة الإنتاج . والكلام جاء على ماكان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبى ﷺ (وهو الذى أنشأ جنات معروشات والنخل والزرع) . والزرع يطلق ويراد به مانقتات به من الحبوب .

﴿ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ..(١٤١) ﴾ [سورة الأنعام]

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبقتها آية فيها كل هذه المعانى يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩) ﴾

[سورة الأنعام]

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعانى الواحدة ؛ لأنهم لا يمتلكون فطنة أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم فى كل شىء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل على الخالق ووحدانيته بدليل أنه ذيل الآية بقوله : (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، ولكن الكلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتفاع بها فيقول :

﴿ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ولاشك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالإله الواحد تحتاج إلى الدليل أولاً ؛ لأن فائدتها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأخلد من الأكل ، لأن الأكل قصارى ما فيه أنه يقوتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأولى تعطينا الثواب الباقى والنعيم المقيم ؛ لذلك فالآية الأولى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتفاع ، وهنا نلاحظ أنه قال : « كلوا من ثمره إذا أثمر » ، وفى هذا إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترتب على ذلك لون من الضرر وإلا عالجناها بما يزيل وينفى عنا الضرر ، فإذا ما وجدت ثماراً لم تنضج لك أن تأكل منها ، ولم يجعل الحق لنا حرجاً فيما نحرث ونبذر ونروى ولكن الله سبحانه هو الذى يزرع ونحن نأكل منه ، ونجد أهل الريف يشوون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

لقد قالوا إن الآية مختصة بما يُحصد وهى الزروع ، أما الأشياء التى لا يقال فيها : حصد فهى خارجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإمام أبا حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبته الأرض ينطبق عليه هذا النص ؛ لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بفهم اللغة .

ما معنى الحصاد فى اللغة ؟ . الحصاد فى اللغة القطع ، فحينما تفصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ؛ تكون الغلال فى السنابل ، ويرى الإمام أبو حنيفة أن تعطى من البداية لمن حضر القسمة ، وكذلك حينما تدرسه وتذريه تعطى ، وعندما تغربل الحبوب أعط أيضاً ، ويبتدىء الحصاد من ساعة أن تُكيل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتيه من الحق يوم حصاده هو غير المفروض ؛ لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفى هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والبعض قد فسّر الإسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أى تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافاً ؛ لأنه مأخوذ من « سرف الماء » ، وهو أن يُطلق الماء ويذهب فى غير نفع ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإنسان مثل جبل أبى قبيس ذهباً ثم أنفقه فى حلّ ما عُدَّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً فى معصية يعد سرفاً .

إذن فمعنى : « ولا تسرفوا » أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزوا الحدود التى شرعها الحق فتستعملوا هذا فى معصية ، أو لا تسرفوا فى أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق .

وكان حاتم الطائى كريماً جداً ، وقعدوا يلومونه على هذا الكرم ، فقال واحد له : لا خير فى السرف . رد عليه فقال له : ولا سرف فى الخير . أى أنه مادام فى الخير فلا يكون سرفاً .

وإذا كنا سنأخذ الأمر على المعنيين الاثنين : النقص والزيادة ، فما المانع أن تعطى للفقير أكثر ؟ . ويحكى الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريحية والنشاط للبذل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزها وأعطاها كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا ؟ مخافة أن تحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتندم على أنك أعطيت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾